

المطابقية السادسة

بقلم: ي . كوراثوف

ترجمها من الروسية أ.د. حمد طاهر

كان عمري في ذلك الوقت سبعة شعر عاماً . عملت في دائرة مكاتب خاصة بالتخزين كموظف متجول . والواقع أن هذه كانت وظيفة شخص محترم في المذهب والدياباب . ما يأمر به ينفذ

وعلى نحو ما . أرسلوني في الربيع المبكر إلى (كوبيلوخا) . حيث ضاعت من أحد مخازننا بعض المقطعان . وقد فرحت بهذه الرحلة فرحاً شديداً ، فهناك كان لي صديق عزيز اسمه (كوسائين) . وقد اقمتم معه في أحد الأكواخ البرية

أمام الأكواخ الكازخستانية , ليس من النادر أن تلتقي بثعلب صغير مربوط في وتد , وهذا يتم على النحو التالي: يثبت الوتد في الأرض , وعلى الوتد تثبت حلقة منزلقة بعروة , وفي العروة تثبت سلسلة . وفي السلسلة يقيد الثعلب الصغير بطوق في رقبته , ويجري الثعلب حول الوتد . وميزة الحلقة المنزلقة أنها لا تجعله يتعثر , وغالباً ما يلعب الأطفال الصغار مع الثعلب الصغير: يطعمونه ويعتنون به . ومع حلول الشتاء , يكون الثعلب الصغير قد كبر , وصار ثعلباً ..

ثم بعد ذلك يتحول إلى طاقية , وهي التي تكون غطاء الرأس الكازخستاني

الذي يشبه المثلث

عندما وصلت إلى (كوسائين) , رأيت ثعلباً كبيراً جميلاً , مربوطاً في الوتد . كان مستلقياً , وهو يرضع خمسة ثعالب صغيرة . وقد أخبرني المجرر .

(كوسائين) أنه اصطاد العائلة بأكملها من

وحين سألت كوسائين عن الثعالب الخمسة التي لم تكن مربوطة:

-كيف لم تجر ؟

-أجاب على الفور:

-والى أين يجرون ؟ ولما شيء يهربون من أمهم ؟ كيف سيعيشون ؟ ومن يقدم لهم الغذاء ؟ وعموماً فإن الثعالب الصغيرة لا تجري بصورة جيدة , وهذا حسن بالنسبة إليهم . وبالنسبة لي أيضاً حسن .. لأنهم عندما يكبرون , سيصبحون ست طواق ..

عشت فترة عند كوسائين , أعطى وقت فراخي كله للثعلب وأبنائه . وقد حضر كوسائين حفرة بالمقرب من الودند , وقرشها بالصوف .
الثعلب يتغذى باللحم النيء , وأحشاء الحيوانات .

وهو في العادة قبل أن يأكل , يشرب لبن الفرس . وبمرور الوقت ينسى الثعلب العبودية , ويبدأ يشعر بالفرح مع أبنائه الذين يتحركون برشاقة من حوله , ويلحسهم بريقه , ويلعب معهم , ثم يتمدد بسعادة عند الحفرة , عندما يحين وقت إرضاع الثعالب الصغيرة . والثعلب يصبح بصعوبة وحشاً مستانساً . الضجة وأصوات الناس تخيفه . وكل من المدخان والنار يرعبه . أما جيرة الكلاب فهي بالنسبة له جيرة خطيرة . لكن للثعلب أبناء . هي أم . وشعور الأمومة يجعلها تهادن الجميع , وهكذا فإن الخوف الشديد هو الذي يجعلها تتناسى السلسلة , والبطوق , والأسر !

أحياناً تجرى للثعلب نزهة . ويقوم بهذا العمل ابن كوسائين . إنه يزيد من طول السلسلة قليلاً , ويجري به في السهول البرية . ويتبعه في الجري الثعالب الصغيرة .

كان الثعلب يجذب السلسلة بشدة , وهو يندفع في أعماق المبراري المشاسعة , بعيداً عن المساكن , والمراتع القريبة منه . ومن المؤكد أن كل نزهة من أمثال هذه النزهات كانت تمثل له بداية محاولة تحرر . . ولكن بلا جدوى , فإن السلسلة ترجعه , وقد استدرنا للخلف , والثعلب الآن لا يندفع بنفس سرعته الأولى , إنه يمشي متنازلاً في خطوه خلصنا , منكساً راسه في حزن . وهو يشاهد الودند البغيض , والحفرة التي صنعها له الإنسان , أما الثعالب الصغيرة فإنها لا تفهم شيئاً على الإطلاق , فهي تسرع , واحداً وراء الآخر , أو مشتبكين مع بعضهم البعض في عراك بريء ..

عندما أنهيت أعمالني سافرت . ومضت عدة أشهر لم أرفيها كوسائين . وفي نهاية الربيع , أرسلوني من جديد إلى كوبيلوخا , التي

أصبحت فيما يبدو معرضة لهطول الامطار , واضطرابات الجو ..

وما أن وصلت حتى اسرعت إلى كوساتين , وفي نفس اللحظة سألت عن الثعلب: قال لي: " انظر .. انظر .." وقبل أن أفك برعدة الحصان , أسرعت إلى وتد الثعلب خلف الكوخ . وهناك رأيته جالساً بلا حراك : وجهه المهزيل المحاد صار ممثلاً ورقيقاً . وكان ينظر إلى الميرية بتوتر . وقد رجفت عظام وجنتيه رجفة عصبية . ولم يعرني أي اهتمام قلما . كانت عيناه تطرفان . كان ينظر إلى بعيد .. كما لو كانت أمنيته أن يرى شخصاً من خلال المضباب السديمي

.. وكان طعام الثعلب بالمقرب منه .. لم يُمسَ

قال كوساتين بحزن:

-إنهم هجروها في الليل . وما فائدة الأم لهم الآن ؟ لقد أطعمت أبناءها , أعطتهم كل شيء .. الأسنان البيضاء الحادة , والفرو المدافئ الأحمر , والأرجل السريعة العدو , والعظام المتينة , والدم الساخن .. ماذا تعني لهم الأم الآن ؟ !

في طفولتي , أسرفت كثيراً في سماع القصص المبيكية , وقد علمتني أن أتأسف حتى على الشجرة المكسورة ! وقد حزننت للغاية على الثعلب الذي جلس هكذا بانشغال ورقة , بعدما هذبة الخوف والأسر , قريباً من ضجيج الإنسان , ودخان مسكنه .. خمسة ثعالب تركت الآن أمهم المشغولة عليهم للوحدة مع ذلك الوتد البغيض في ليل الخريف المظلم ..

هجرتها وقد ذام الجميع , ولم تستطيع الكلاب التي أطلقت ورائها أن تلحق بها . كان هذا خداعاً .. آه .. الخداع , الذي هو شعار حياة الثعالب , وقد تلقته الثعالب الصغيرة أيضاً من أمهم!

بالمنسية إلى الوحش , هذا هو القانون , لكن الإنسان يريد أن يرى الوحوش أفضل مما هي عليه في الواقع . وهكذا كانت عينا الثعلب الإنسانيتان , النبيلتان مصويتين في الفراغ ..

وأخبرني كوسائين :

— لقد نادت عليهم . نادت عليهم بحزن بالغ جدا .. وبالامس انتشر ناحيها في البرية كلها ، وبكتهم كما لو كانت تبكي الموتى بصورة . ذليلة جداً.

ثم أضاف :

— خسارة كبيرة .. فلتت منا خمس طواق!

لكنه عندما تطلّ ع إليّ , بدا كأنه قرأ في وجهي الأسى الذي أثاره منظر صديقي البري المتوحش ..

إنني لم أتبادل معه الهدايا فقط , وإنما المشاعر الطيبة أيضاً ..

وفي صمت , توجه كوسائين إلى الثعلب , وفكه من حلقاته , وقال :

-إذا كنا قد فقدنا خمس طواق , دعنا ن فقد السادسة . ولن أجعلك تحسبني أضع على رأسي طاقيّة ثعلب حزين . ليس لدي رأس لمثل هذه الطاقيّة !

وبعد ان قال ذلك أطلق صرخة على الثعلب . لكن الثعلب لم يجر . واكتفى بأن أصدر صوتاً خفيضاً يشبه الصفير , ثم اندفع إلى المحفرة التي بجوار الموتد .

قال كوسائين متأملاً:

— إنه لم يثق بعد في الحرية , طبعاً . إن السلسلة تستأنس حتى الدوحش !

وفي الصباح بدت المحفرة فارغة . وقال لي كوسائين بسرور :

— أيشر يا صديقي . فقد رحلت المطاقيّة السادسة تبحث عن طواقيها الخمس .. إنها ستجدهم . من الضروري أن تجدهم وتتكلم .. سوف تتحدث بصورة جيدة جداً .. لكن من الممكن أن تسكت .. وتأسف .. أليست أم!